



العلوم المساعدة

تمهيد - اللغات - الفيلوجيا - الخطوط - الوثائق - الأختام - الرنوك - النيات - الجغرافيا -
الاقتصاد - الأدب - فنون الرسم والتصوير والنحت والحجارة - الفنون الموسيقية - التاريخ -
طائفة من العلوم الأخرى - الارتحال والسفر .

المقبل على دراسة التاريخ وكتابته ، ينبغي أن يعلم من أول الأمر أنه مقبل على عمل شاق يتطلب الجهد والتضحية والصبر الطويل ، وأنه تلزمه دراسة عميقة وتحصيل جدي متنوع ، شأن التاريخ في ذلك هو شأن سائر أنواع العلوم والمعارف . وأنواع المعرفة الإنسانية متداخلة متشابكة فيما بينها ، ولا يمكن أن يُدرس علم معين مستقلاً بذاته تمام الاستقلال عن سائر العلوم أو المعارف . فثلاً لا يستطيع الدارس أن يفهم القرآن الكريم دون أن يُحسن معرفة اللغة العربية وعلوم القراءات والفقه والحديث الشريف والتصوف والأدب والتاريخ والجغرافيا . . . وكلما ازدادت معرفته بهذه العلوم ازداد فهمه واستيعابه لمعاني القرآن الكريم .

وقل مثل ذلك بالنسبة لدراسة التاريخ ، التي هي متصلة بأنواع مختلفة من المعرفة الإنسانية . فن الضروري للمؤرخ أن يكون واسع الثقافة ، عارفاً بالعلوم المتصلة بدراسة التاريخ وكتابته . ويمكن أن تسمى العلوم اللازمة للمؤرخ - أو لغيره من الدارسين والباحثين بالنسبة لموضوع كل منهم - بالعلوم المساعدة أو العلوم الموصلة . ويلاحظ أن العلوم المساعدة تختلف وتتفاوت - بالنسبة لدارس التاريخ - باختلاف العصر أو الناحية التي يرغب في دراستها والكتابة عنها . فالعلوم المساعدة اللازمة لدراسة تاريخ اليونان القديم تختلف عن العلوم المساعدة الضرورية لدراسة تاريخ عصر النهضة أو تاريخ الثورة الفرنسية الكبرى أو تاريخ الولايات المتحدة الأمريكية .

وقد تبدو مسألة تعلّم اللغات - الأصلية أو العامة - أمراً عسيراً ، وربما تجعل أشجع الناس يتردد في الإقدام على دراستها . ولكنها دراسة أساسية لمن يرغب جدياً في دراسة التاريخ وكتابته . ويحسن بالدارس أن يبدأ في دراسة ما يلزمه من اللغات في أثناء وجوده بالمعاهد النظامية . وليس هناك ما يمنعه من أن يتعلم لغةً ما ، في أى وقت شاء من حياته . وإن دراسة سنتين في إحدى اللغات الجديدة على الباحث كافية كأساس مبدئى يستمر بعدها في المزيد ، ويا حبذا لو أمكنه قضاء بعض الزمن ، وفي فترات متتابعة ، في بلد تلك اللغة الجديدة عليه .

والفيلولوجيا (philology) - فقه اللغة - من العلوم المساعدة الضرورية لدراسة فروع كثيرة من التاريخ . وكلما بَعُدَ العصر الذى هو موضوع الدرس ازدادت أهمية الفيلولوجيا ، إذ لا بد لفهم النصوص التاريخية من معرفة لغة ذلك العصر التاريخى المعين . وليست اللغة علامات جبرية أو أرقاماً حسابية تُستخدم كما في العلوم الطبيعية للدلالة على معانٍ وكميات محدّدة ، ولكن اللغة كائنٌ حىٌ ينمو ويتغيّر ويتطوّر تبعاً لظروف المكان والزمان ، ولتغيّر الإنسان ، واختلاط الثقافات . وفي بعض الأحيان قد يدل اللفظ اللغوى على معنى محدد تماماً ، كما يمكن أن يدل اللفظ اللغوى على معانٍ نسبية أو متغيّرة أو متضادة ، وقد تدل كلمة واحدة على معانٍ متفاوتة أو مختلفة باختلاف استخدامها عند كاتب بعينه . وتبدو هذه الظاهرة شديدة الأهمية في دراسة التاريخ - كما في غيره من الدراسات وعلى الأخص في الدراسات الأدبية . وبذلك فلا بد من معرفة اللغة التى يقرأ فيها دارس التاريخ ، فضلاً عن الدراية بما نال ألفاظها من المعانى المتفاوتة أو المختلفة ، حتى لا يفسّر ما يقرأ على غير حقيقة .

وعلم قراءة الخطوط (paleography) من العلوم الأساسية لدراسة نواح كثيرة من التاريخ ، منذ أقدم العصور حتى أزمان متأخرة . وتوجد أنواع مختلفة من الخطوط الشرقية تبقى كالطلاسم حتى يتعلمها الباحث ويتدرب على قراءتها . ودراسة هذه الخطوط تحفظ له الوقت وتُجنبه الوقوع في كثير من الخطأ . وتتضح أهمية هذه الدراسة في فروع عديدة مثل تاريخ مصر القديم ، وتاريخ بلاد العرب قبل الإسلام ، وتاريخ اليونان ، وتاريخ الرومان ، وتاريخ العصور الوسطى ، والتاريخ الأوروبي

واللغات من أهم العلوم المساعدة التي ينبغي أن يتزوّد بها الباحث في التاريخ . فلا بد أولاً من معرفة اللغة الأصلية الخاصة بالموضوع التاريخي المراد بمحثة والكتابة عنه ، لأن الترجمات التي تكنى لتحصيل الثقافة العامة لا تنى حاجة المؤرخ للتوفر على تفهم الناحية التي يريد أن يتناولها . والراغب في الكتابة عن ناحية من تاريخ اليونان القديم لا بد له من معرفة اللغة اليونانية القديمة ، والراغب في الكتابة عن موضوع من تاريخ العصور الوسطى في أوروبا يلزمه أن يكون عارفاً بلاتينيتها ، ومن يرغب في الكتابة عن ناحية من تاريخ عصر النهضة لا بد له من معرفة اللغة الإيطالية ، وهكذا . وتتفاوت أهمية اللغة الأصلية بالنسبة للموضوعات التاريخية المختلفة . فالراغب مثلاً في الكتابة عن الثورة الفرنسية الكبرى تكون اللغة الأصلية بالنسبة له هي اللغة الفرنسية - لا اللاتينية - التي لا داعي للتعلم في دراستها في هذه الحال ، ومن الأفضل له أن يُنفق جهده في تعلّم لغة أوروبية أخرى بعد الفرنسية، ولكن اللاتينية تُعدّ لغة أصلية ضرورية بالنسبة لمن يرغب في دراسة تاريخ الكنيسة حتى في العصر الحديث .

وكلما تعدّدت اللغات الأصلية القديمة أو الحديثة التي يُلم بها الباحث ، اتسع أمامه أفق البحث والاستقصاء . فعليه أن يكون حريصاً على دراسة ما يلزمه منها مهما كانت قديمة أو صعبة أو نادرة مثل اللغة المصرية القديمة أو اللغة الصينية أو العربية أو الفارسية أو الروسية . . . حتى يستطيع الرجوع إلى الأصول والمصادر التاريخية الأولى ، وهذه كلها أدوات أساسية لا يمكن بغيرها السير قدماً في سبيل البحث التاريخي العلمي .

وكذلك ينبغي على الباحث في التاريخ أن يلم بلغة أو أكثر من اللغات الأوروبية الحديثة الشائعة الاستعمال كالإنجليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية والأسبانية ، وإن قصر في معرفة بعضها فيمكنه أن يواظب على دراستها ، حتى يبلغ المستوى الذي يتيح له فرصة الاستفادة بها . وهذه لغات غنية بتراثها الأدبي والتاريخي ، ويجتذب انتشارها كثيراً من الباحثين في التاريخ إلى التأليف فيها ، ولا يجوز أن يفوت المؤرخ الثمرات التاريخية التي تنتظمها هذه اللغات كلها أو بعضها .

الحديث حتى جزء من القرن السابع عشر ، وتاريخ الشرق الأدنى حتى القرن التاسع عشر ، وذلك بالنسبة للغات التي تتعلق بهذه الموضوعات . أما بعد ذلك فتصبح الخطوط واضحة مقروءة .

ولقد نَمَتِ الخطوط العربية — مثلاً — وتطورت وكتبت بأشكال مختلفة .
فإنها الطومار^(١) ، ومنها النسخي والرقعة والثلث والكوفي والفارسي والمغربي والغبار^(٢) .
وتوجد أنواع لكل من هذه الخطوط يحتاج قراءة بعضها إلى التعليم والتدريب . وفي الشرق الأدنى العثماني — حيث كانت اللغة التركية العثمانية تُكتب بالحروف العربية — كتبت الوثائق العثمانية بعدة خطوط ، مثل الخط الديواني^(٣) ، وخط القيرمه^(٤) .
وتستلزم قراءة هذين الخطين تعليمًا خاصًا . وخط القيرمه مثلاً خط معقّد كثير الروايا والثنايا ، ويمكن أن تُكتب به معلومات كثيرة في حيز ضيق ، فضلاً عن الأرقام الخاصة به . ولقد أوجده العثمانيون لتحرير الشؤون الإدارية والمالية ، ولكي يحيطوا محفوظاتهم بالكتمان والسرية .

ومجموعات وثائق دار المحفوظات المصرية بالقلعة — مثلاً — تحتوي على آلاف الوثائق عن تاريخ مصر المالي والإداري في العهد العثماني وفي عهود محمد علي وخلفائه ، وأغلبها مدون باللغة التركية وبخط القيرمه . وكذلك توجد مجموعات لا تُحصى من الوثائق المدونة بهذا الخط في تركيا وفي كثير من المناطق التي خضعت للإمبراطورية العثمانية^(٥) . وستظل معلوماتنا عن هذه القرون الطويلة قاصرة وناقصة حتى يوجد مَنْ يتعلم قراءة خط القيرمه ، ويتمكن من دراسة ما تتضمنه مخطوطاته من المعلومات

(١) الطومار نسبة إلى قلم الطومار وكان يكتب سلاطين مصر بهذا الخط علاماتهم على المكاتبات ومناشير الإقطاع .

(٢) سمي الغبار كذلك لدقته بسبب الصعوبة في رؤيته وكأنه ذرات الغبار . وبه كتبت بطائق الحمام الزاجل ويسميه بعضهم قلم الجناح .

(٣) الخط الديواني من الخطوط العثمانية وكتبت به الأوامر السلطانية والفرمانات والإنعامات .

(٤) قيرمه من قيرمق التركية بمعنى الثني والتكبير ، وشاع استعمال هذا الخط في مصر ابتداء من

القرن ١١ هـ .

(٥) توجد مثلاً بالمكتبة الظاهرية في دمشق مجموعة من الوثائق مكتوبة بخط الديواني والقيرمه وترجع إلى القرن ١١ هـ . وما تناوله مسائل تتعلق بتاريخ فخر الدين المعني الثاني أمير لبنان .

على مدى سنوات طويلة *

ونجد الخطوط الأوروبية - مثلاً - قد نمت وتطورت واختلفت من عصر إلى آخر ، وطرأت على كتابتها تغييرات مستمرة على الحروف الصغيرة وعلى الحروف الكبيرة ، ونشأت خطوط خاصة في أوقات معينة ، ووجدت اختصارات لبعض الألفاظ ، مثل كتابة الجزء الأول من الكلمة أو من أجزائها . وأحياناً وضعت علامات فوق الحروف للدلالة على كلمة ما . فلا بد من دراسة الخطوط اللازمة للباحث في التاريخ ، حتى يمكنه الرجوع إلى الوثائق التي دُونت بها .

* كان زميل الأستاذ محمد محمد توفيق المتخرج في كلية الآداب بجامعة (القاهرة) في سنة ١٩٣٢ ، كان يعمل كفهرس ومترجم للوثائق التركية بدار المحفوظات المصرية بالقاهرة في أواخر الثلاثينيات وأوائل الأربعينيات من القرن الحالى ، وقد كتب في مجلة الهلال عدد مايو ويونيو ١٩٤١ مقالا عن « الحلقة المفقودة في وثائق تاريخ مصر الحديث » قدم فيه موجزاً عاماً عن مضمون هذه الأصول التاريخية . وكذلك نشر كتيباً عن « إلغاء نظام الالتزام في عهد محمد على الكبير » ، في القاهرة سنة ١٩٤١ ، ونشر في الوقت نفسه ترجمته بالفرنسية ، وقد قام بالترجمة الأستاذ إبراهيم المويلحى الذى كان يزامله في العمل بدار المحفوظات المصرية بالقاهرة وقتئذ ، واعتمد في ذلك على الوثائق المحفوظة في تلك الدار . وقد كان للأستاذ محمد توفيق الفضل في اشتراكنا معاً في كتابة فصل بعنوان « تاريخ مصر في العهد العثماني (١٥١٧ - ١٧٩٨) » نشر في كتاب « المجلد في التاريخ المصرى » في سنة ١٩٤٢ ، والذي سيأتى ذكره بعد . وقد وضع رسالة بعنوان « مصطلح وثائق تاريخ الحكم العثماني في مصر » مع دراسة خط القيرمه وكتابة مشق له ، فضلاً عن قاموس خاص بمصطلحات الموضوع ، ونال بها درجة الماجستير في الآداب من كلية الآداب بجامعة (القاهرة) في سنة ١٩٤٣ . ولم يوفق الأستاذ محمد محمد توفيق إلى نشر هذه الرسالة . ولظروف خاصة ، ربما كان من بينها عدم تقدير الجامعة والجهات المعنية بالدراسات التاريخية لهذا النوع من الدراسة ، كف عن متابعة دراسته ، وعاش في شبه عزلة عن العالم ، وعكف على دراسة الشعر وقول القريض . وقد نحى فيه منحى شعراء العصر الجاهلى . ومن مؤلفاته في هذا الصدد قصيدة « المعلقة الإسلامية في تاريخ الكعبة والمسجد الحرام » ونشرت بالقاهرة في سنة ١٩٥٥ . وله قصيدة لم تنشر وتقع في أكثر من ألف بيت عن « نهر النيل » ، وقد قرأناها معاً غير مرة . وخرج من عزله بعض الشيء منذ حوالى تسع سنوات ، تولى في أثنائها تدريس شيء من اللغة التركية ، وثنى من الوثائق العثمانية في كليتي الآداب بجامعة القاهرة وعين شمس . وكان يفد عليه من وقت لآخر بعض المشتغلين بدراسة التاريخ ، وأخص بالذكر منهم استافورد شو الأمريكى الذى زار مصر والشام وتركيا خلال ١٩٥٥ - ١٩٥٦ - ١٩٥٧ ، وأفاد من علمه وخبرته بالوثائق العثمانية في مصر ، في سبيل إعداد رسالته عن « النظام المالى والإدارى وتطور مصر العثمانية من ١٥١٧ إلى ١٧٨٩ » والتي نال بها درجة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة برنستون في ولاية نيوجيرسى بالولايات المتحدة الأمريكية ، ونشرتها تلك الجامعة في سنة ١٩٦٢ . وقد ذهب الأستاذ محمد محمد توفيق منظم الوثائق المترجم المهرس الشاهر الرقيق المهرف الحس الدمث الطبع الوفى الأمين - ذهب إلى بارث في يونيو سنة ١٩٦٣ ، تاركاً فراغاً لا يعوض في علم الوثائق العثمانية وفي عالم الخلق السامى والدوق الرفيع .